في انتظار رصاصة الرحمة على حصان مدريد العجوز

مطلوب استعادة الذات و عناصر قوتها المبددة طوال خمس سنوات

مرة أخرى دخلت مفاوضات المسار الفلسطيني الإسرائيلي في مأزق. ولا يفوت الإنسان، قبل المضي قدماً في هذا الحديث، أن يلاحظ كيف اعتدنا استخدام المصطلحات المستحدثة الشائعة في الإعلام على نحو غير إرادي : (المسار) و (المأزق) وما إلى ذلك من تعابير جرى اختراعها ونحتها لتحل محل المعنى الحقيقي. فالواقع أن مصطلح (المسار) جاء ليغطي على معنى انفراد إسرائيل بالأطراف العربية كل على حدة، واصطلاح (المأزق) هو تخفيف من عبارة (الطريق المسدود) الذي تصل إليه المفاوضات دائماً بسبب انفراد إسرائيل بالقرار دون رقيب ولا شاهد.

ومرة أخرى أخلفت إسرائيل موعداً سبق أن تعهدت به حكومتها في شرم الشيخ ووقع عليه رئيس وزرائها ايهود باراك. وقبل ذلك أخلفت إسرائيل المواعيد التي نصت عليها أوراق واي ريفر التي وقع عليها رئيس وزرائها السابق بنيامين نتنياهو. وقبل واي ريفر أخلفت إسرائيل المواعيد التي نصت عليها الاتفاقية الانتقالية ووقع عليها رئيس وزرائها الأسبق المغدور يتسحاك رابين. لقد كانت شرم الشيخ مذكرة تعديلية تفسيرية لاتفاق واي ريفر وكان اتفاق واي ريفر مذكرة تعديلية تفسيرية للاتفاق المرحلي، وكلما كانت الأمور في ظل أي اتفاق تكاد تصل إلى الموعد المحدد لتسليمنا جزءاً من أرضنا المحتلة في الضفة الغربية وفق النصوص والتواريخ المذكورة في جداول المواعيد، كان وفد المفاوضات الإسرائيلي يقلب الطاولة بزعم أن الفلسطينيين متصلبون، وأن المرجع في المفاوضات ليس النصوص التي جرى التوقيع عليها سابقاً وإنما المصالح التي هي مدار السياسات واستكمالاً للسيناريو الروتيني المعتاد في هذه الأحوال حضر إلى المنطقة من أمريكا رجل الخارجية الأمريكية المختص بملف المفاوضات العربية الإسرائيلية دينيس روس، وكان السبب المعلن لقدومه هو (كسر جمود المفاوضات) وهو مصطلح آخر من المصطلحات المستخدمة بغرض تجميل القبح، فالواقع أن دينيس روس لم يحاول قط كسر جمود المفاوضات إلا بكسر الإرادة الفلسطينية! ولم نفهم طيلة عشر سنوات ما السبب في ثبات هذا الرجل في موقعه، ولم نفهم كذلك ماذا فعل تحديدا في جولاته واستطلاعاته ومباحثاته المكوكية غير أنه يحافظ على استمرار الحلقة المفرغة دائرة دون توقف.

وكما هو المألوف : دارت أحاديث عديدة في أوساط فلسطينية مسؤولة حول اجتهاداتها بشأن أزمة المفاوضات. ومن مظاهر الضعف العربي الراهن أن الحديث الذي يدور في صفوفنا عن وقائع قضيتنا في أطوارها الحديثة ينصرف إلى تحليل القوى في إسرائيل والموقف في الولايات المتحدة واوروبا والعالم الخارجي إجمالاً أكثر كثيراً جداً مما يتحدث عن قوانا نحن ومواقفنا نحن و التطورات في مجتمعنا الفلسطيني بشقيه في الداخل و الخارج. حقاً.. إن لدينا متكلمين متبحرين في السياسات الدولية والشرق أوسطية، فهناك من يتحدث حديث

العارف عن الفروقات الإجمالية والتفصيلية بين العمل والليكود،أو بين الأطياف السياسية التي تظهر داخل حزب العمل،وهناك من يذهب إلى حدالقول إن أزمة المفاوضات الراهنة برهنت على خيانة باراك للعناصر المعتدلة في حزب العمل. ولدينا أيضاً من يتحدث عن توزيع القوى في الولايات المتحدة الأمريكية بين الديمقراطيين والجمهوريين، و عن اهتراء مركز الرئيس كلينتون بمناسبة قرب انتهاء ولايته وبداية حملات الانتخابات الرئاسية في أمريكا، و ما يعنيه ذلك من عجزه بالتالي عن دفع عجلة المفاوضات في وجه العرقلة الإسرائيلية المتعمدة. وكان الوعد بتدخل الرئيس الأمريكي هو العامل الأول الذي طمأن الجانب الفلسطيني المتذمر من إخلاف المواعيد ونقض التعهدات.

ومع أن استراتيجية أي عمل كبير لا بد أن تأخذ بالحسبان وبالتحليل الدقيق أطراف الصراع : أي الذات وحلفاء الذات و الخصم وحلفاء الخصم، إلا أن تحليلنا لذاتنا و فهمنا لعناصر قوتنا وضعفنا ولحقيقة موقفنا بالنسبة إلى إمكانياتنا وبالنسبة إلى الآخرين.. ومثابرتنا على تطوير الذات والقدرات، والإقلاع عن عادة حسبانها كما ثابتا مفهوماً محفوظاً في اليد وفي الإمكان إضافته للمعادلة في آخر لحظة.. هذا هو ما ينقصنا، وهذا هو ما لا يغني عنه شيء آخر.

يقول البعض إن ما ينقصنا هو تمثيل جميع الفرقاء الوطنيين في توجيه المفاوضات وحراسة الثوابت الوطنية، وتشتكي أطراف معينة من حالة الركود المخيمة على مؤسسات منظمة التحرير، وتطالب بتفعيل المنظمة. ويبدو أن المراجعة المطلوبة أعم وأشمل من ذلك. فالوضع الفلسطيني معلق حتى إشعار آخر. وقد يعيد دينيس روس الفلسطينيين إلى مفاوضات الحلقة المفرغة ثانية دون تغيير في الجوهر. وبذلك يبقى وضع السلطة الوطنية معوما مثل عملة انهار اقتصادها. واذا كان بعض الناس يرى أن في مجرد التواجد فوق أرض الوطن قوة، وأن هذه القوة محسوبة لصالحنا، فان من المحاذير التي ينبه إليها البعض أن الوقت عنصر غير محايد بالنسبة إلينا، نظرا لقيام الإسرائيليين باستخدامه استخداما مبرمجا يلغي فعليا مبدأ المفاوضات وينفذون من خلاله إرادتهم المنفردة بالحل الذي يضع الفلسطينيين في مكانة الساكن المقيم لخدمة

الاقتصاد الإسرائيلي وأعمال الوساطة التجارية مع أسواق العالم العربي. ويضيف أصحاب هذا الرأي أن الإسرائيليين يستغلون الوقت أيضا في محاولة تدمير عناصر القوة الفلسطينية التي سبق أن أهلت ممثلي هذا الشعب لاحتسابهم ضمن فرقاء اللعبة الدولية.

ان علينا ان نتنبه الى هذه المحاولات التدميرية الجارية على قدم وساق لنقض أساس البنيان العقائدي الفكري ونقاط القوة الفلسطينية الحقيقية لا الوهمية. فتلك هي الجديرة بالحراسة والصيانة. و عناصر القوة المادية التي يملكها الفلسطينيون قليلة، إذ فقدوا الشطر الأكبر من أرضهم، وهي على كل حال أرض لا تتمتع بخصوبة خاصة، ولا تشتمل على ثروات طبيعية يعتد بها، لا سيما بعدما استولى الإسرائيليون على معادن البحر الميت. و على الرغم من الحيوية المأثورة عن الفلسطينيين، فإن الظروف التي مرت بها بلادهم منذ عام ١٩٤٨ حالت دون تأسيسهم قطاعاً صناعياً، مثلما حالت دون تقدم اقتصادهم الزراعي إلى الأمام. ويصعب ان تعد المنشات البسيطة القائمة في الضفة والقطاع لصناعة الصابون أو عصر الزيت أو تشميع الأثمار الحمضية بمثابة قاعدة صناعية تستحق الذكر. وربما كانت المدخرات النقدية التي أودعها العاملون الفلسطينيون في الخارج أهم الثروات الاقتصادية التي يملكها الفلسطينيون.

وفي المقابل يتمتع الشعب العربي الفلسطيني بعناصر قوة معنوية نادرة، تعوض نقصان العناصر المادية تعويضاً مدهشاً. وأول عناصر القوة المعنوية الدرجة العالية من التجانس البشري العربي الفلسطيني. ففلسطين الطبيعية إقليم صغير متقارب الأرياف والحواضر والبوادي. والعرب أهل فلسطين تنتمي أغلبيتهم إلى ديانة واحدة و أقليتهم إلى ديانة واحدة أخرى، وليست هناك فسيفساء طائفية متنافرة هنا وهناك كما هو شأن بعض المجتمعات. وهو شعب صغير ناطق باللغة التي نزل بها القرآن وتتخاطب بها عناصر الناس لا في فلسطين وحدها ولكن في المنطقة العربية كلها. وقد تعرض هذا الشعب في القرن العشرين الماضي لأحداث جسام صهرته في بوتقة التجارب القاسية ومزجت ذراته بعضها في بعض. وكان لذلك أثره في متانة الوحدة الوطنية الفلسطينية منذ الحكم العثماني حتى زماننا الحاضر وقد تجسدت وحدته سياسيا منذ مطلع الحركة الوطنية الفلسطينية بالمؤتمرات الإسلامية المسيحية وشعار الهلال والصليب، وتجسدت أيضاً بالإضراب الشامل الشهير و بالثورات الشاملة شرقاً وغرباً و شمالاً وجنوباً، وفي تمثيل المؤتمرات الوطنية الفلسطينية جميع عناصر السكان.

أما على الصعيد الاجتماعي فتجسدت وحدة الشعب العربي الفلسطيني في تقارب تقاليده وعاداته وسهولة المخالطة بين شرائحه و طبقاته المختلفة. وفي السنوات التي أعقبت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨ تعززت المخالطة وانجسرت الفجوات بين الطبقات المختلفة جراء معيشة المخيمات ومعاناة ظروف الهجرة إجمالا. وكذلك حدث عندما انتقلت أعداد متزايدة من الطلائع المتعلمة الشابة إلى دول النفط للعمل وكسب الرزق هناك، فجمعتهم وحدة الحال في الغربة كما جمعت عائلاتهم وحدة المأساة في الهجرة. وحدث تحسن نسبي في الوضع الاقتصادي العام في المخيمات والمدن والأرياف.

بلغ الإحساس بقوة الرابطة الفلسطينية في المغتربات درجة عالية ربما زادت على ما هو مألوف لدى البشر، وربما وصلت حد التطرف وهو احساس ممزوج بقدر من الشعور بالظلم والقهر وانعدام التفهم لدى الاخرين وبالتالي ضرورة المقارعة وبناء الذات بل واثبات الذات من خلال التفوق، وفي الحق إن الفلسطينيين في بلدان اغترابهم استطاعوا أن يكسبوا احترام إخوانهم العرب. ولما كان العديد من أفراد الطليعة المتعلمة قد عملوا في نطاق التعليم في البلدان العربية في السعودية و الخليج و ليبيا، فقد تأثرت أجيال من التلاميذ في تلك البلدان بمعلميهم الفلسطينيين، و عزز ذلك لدى الطرفين الشعور القومي العربي الموجود بحكم الانتماء إلى الأمة الواحدة.

والرابطة القومية التي تشد الفلسطينيين إلى إخوانهم العرب هي بدورها عنصر كبير من عناصر القوة التي تضاف إلى كفة الميزان في صالح القضية الفلسطينية وأهلها. وكل إضعاف للرابطة القومية أو إنكار لدورها هو إضعاف للقضية وتنكر لبعدها العربي الذي هو بعد موضوعي تاريخي قبل كل حساب. إن عدد الشهداء من مختلف البلدان العربية الذين سقطوا على أرض فلسطين يزيد كثيرا على عدد الشهداء الفلسطينيين أنفسهم. وحرب فلسطين عام ١٩٤٨ بدأت حرب متطوعين عرب وفلسطينيين. ومهما يكن من أمر المرحلة التي تلت حرب المتطوعين والتي شهدت الخيانات الكارثية والانسحابات من طرف الجيوش النظامية، فلا يغيب عن البال أن شهداء الجيوش لم يكونوا يقلون عن المتطوعين شعورا وانتماء قوميا. وينبغي أن لا يكون هناك خلط بين فشل القيادات وبين تضحيات الجنود. وعموما إن الأمة العربية شعوبا وأنظمة لم تجتمع في التاريخ الحديث على شأن

كما اجتمعت على فلسطين. وليس في ما نقول بطبيعة الحال تبرئة لخيانة الخائنين وإنما قصدنا أن هذه القضية كانت . وما زالت . قضية الشارع العربي، لا يستطيع أن يتجاهل ذلك أي حاكم. أضف إلى ذلك أن اختلاط الفلسطينيين بإخوانهم العرب طوال نصف قرن ونيف، نتجت عنه مصاهرات عززت دواعي الانتماء إلى القضية واستشعار الواجب تجاهها. وربما كان أهم من هذا كله مسألة الموقع الذي تمثله الجغرافيا الفلسطينية في نظر المؤمنين بالوحدة العربية ودولتها ؛ وقد نضيف : وفي نظر المؤمنين بالقومية السورية ودولتها.

وما يقال عن الرابطة العربية بوصفها عنصرا استراتيجيا في ميزان القوة الفلسطيني يقال مثله عن الرابطة الإسلامية. وهنا تنفتح الأبواب للقول بلا نهاية في شأن مصادر القوة التي يمنحها الانتماء إلى أمة الإسلام. فمنذ أنزلت سورة الإسراء في مكة المكرمة تقرن بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى في سياق واحد، أصبحت مدينة القدس جزءا لا يتجزأ من عقيدة الإنسان المسلم بحيث يعني فقدانها ضياع ركن أساسي من هيكل المقدسات. ويمكن القول بلا مبالغة إن احتلال الإسرائيليين هذه المدينة سيظل يلهم الشباب المسلم في أنحاء العالم كله برسالة تحرير الأقصى، علماً بأن مما يعزز ذلك الإلهام وجود العديد من الأحاديث النبوية التي تشتمل على نبوءات في صدد ما سيكون في فلسطين من صراعات ومعارك وما سينال المدافعون عن عقيدتهم من مكانة وأجر عظيم. ويوفر الإسلام لأتباعه ولأوطانهم منظومة الجهاد التي هي عقدٌ للمشاركة المحتومة في الحرب والسلم بين أفراد الأمة جميعاً، وهو عقد ملزم بحكم الانتماء للجماعة الإسلامية دون حاجة إلى الموافقة على هذا العقد، لأن الجهاد فريضة تعبدية وترتيب سياسي اجتماعي في الوقت نفسه. وبهذا الحكم تكون فلسطين قضية تخص أبعد مسلم في الصين أو الولايات المتحدة بقدر ما تخص المسلم المقيم في القدس.

هذه المثاقيل في كفة ميزان القوى الفلسطيني موجودة دون جهد فهي هبة قدرية لا يد لأحد في وجودها. ويتمتع الشعب العربي الفلسطيني بعناصر قوة أخرى أوجدتها المسيرة الحياتية الخاصة بالشعب العربي الفلسطيني وظروف عمله والتحديات التي اعترضت طريقه طوال قرن من الزمان. لقد تزود بقدرة خاصة على احتمال التضحيات سببها اعتياد نزول المصاعب والمصائب و الخسائر أثناء الثورات والهبات و الانتفاضات منذ العقد الأول من القرن العشرين و حتى نهاية القرن. و ذلك يعني أهلية استثنائية للصبر والجلد و الإصرار.و هذه الأهلية التي يكتسبها جيل من الناس ما تبرح أن تصبح تراثا متوارثا في التربية و المزاج العام. و لولا وجود هذا التراث ما أمكن لظاهـ رة كالانتفاضة أن تنبثق في عام ١٩٨٧ ضد احتلال مدجج بالأسلحة و أدوات القمع. والانتفاضة كانت برهانا على أن الفلسطيني قادر على مواجهة العنف بالعنف دون أن تقيد إرادته الحسابات العقلية الباردة.وكانت برهانا على أنه ذو أنياب وأظافر مهما حاول الخصم تدجينه. وتبقى هذه القدرة الخاصة على الاحتمال وعلى إيقاع الأذى بالخصم وحرمانه من النوم عنصراً حقيقياً من عناصر القوة في كفة ميزان الشعب العربي الفلسطيني.

كذلك استطاع هذا الشعب أن يكتسب عنصراً خاصاً من عناصر القوة التي تضاف لصالحه حين استجاب لتحدي النكبة بالإقبال على التعليم وأصبحت نسبة المتعلمين في صفوفه من أعلى النسب في المنطقة. بل إنها وصلت في قطاع غزة ذات حين إلى نسبة من أعلى النسب في العالم و أصبحت الأمية في حكم المعدومة. ويشكل خريجو التعليم العالي والدراسات العليا الفلسطينيون عددا كبيرا من الكفاءات المنتشرة في منطقتنا وفي العالم.وهم قوة ذات وزن عند من يقدر قيمتها.

ومن عناصر القوة أيضا تلك الخبرات التي اكتسبها جميع أولئك الفلسطينيين الذين اغتربوا عن بلادهم وطافوا شرقا وغربا في بلاد الناس فشاهدوا النماذج المختلفة للحضارات وللأنظمة السياسية وللأساليب الإدارية وللأنماط العمرانية. ناهيك عن العسكريين الفلسطينيين الذين خاض بعضهم حروبا خمس أو ست مرات في حياتهم، في مواقع مختلفة وأنواع مختلفة من الحروب. إن انفتاح العقول على هذه الألوان من المعارف والخبرات يضيف قوة إلى الشخصية وبراعة في الأداء.

لم يتكرم الأمريكيون بدعوة الفلسطينيين إلى مؤتمر مدريد إلا لأنهم كانوا على علم بأن الفلسطينيين أصحاب وزن حقيقي في المنطقة التي تحرص أمريكا على استقرار الأنظمة السياسية فيها بما يضمن المصالح الأمريكية. ولم يكن الإسرائيليون أقل معرفة بوزن الفلسطينيين وبقدرتهم على الفعل، وان درجوا على التظاهر بعكس ما يعرفون، وذلك بغرض التبخيس والتجاهل. ولولا أن الفلسطينيين عنصر قادر على التأثير في المصالح الأمريكية وفي كينونة إسرائيل لما تجشم الأمريكيون والإسرائيليون مشقة الجلوس مع فلسطيني. وهذا هو حالهما مع سائر أهل المنطقة.

كان المفترض إذن أن مشروع السلام الأمريكي الإسرائيلي قائم على اقتناع نهائي من قبل هذين الحليفين بأن خصمهما الفلسطيني قادر بنفسه وبحلفائه على إيقاع الضرر بهما وبمصالحهما، مثلما يتوفر لدى الطرف الفلسطيني اقتناع مقابل بأن خصميه الحليفين قادران على تكبيده ضررا معاكسا دون أن يكون في الوسع حسم هذا الصراع في وقت معلوم. ولذا كان من الأفضل التوصل إلى سلام عقلاء " وليس شجعان " عسى أن تتوفر في وقت آخر شروط كافية لتتحول هذه المصالحة إلى سلام دائم.

بات واضحا كالشمس الآن أن الإسرائيليين عاملوا مشروع السلام معاملة تكتيكية تقوم على اعتباره فرصة لإدخال معظم كوادر منظمة التحرير داخل حيز صغير يجردهم من فاعلية الخصومة. وابتدع الإسرائيليون اختراع " الفترة الانتقالية " ليباشروا على الأرض أثناءها وضع الحل الإسرائيلي موضع التنفيذ ومن ثم يرغموا الجانب الفلسطيني على التوقيع عليه بعدما أصبح أمرا واقعا وانتهى الأمر، وفي هذه الأثناء تكبد الفلسطينيون من الخسائر خلال خمس سنوات ما أصاب جميع نقاط قوتهم المعنوية بصورة مؤثرة. وكان ذلك سببا إضافيا حمل الإسرائيليين على قلب ظهر المجن للمفاوضين الفلسطينيين المتمسكين بالاتفاقيات الموقعة وبمرجعية السلام ومرجعية مدريد ومرجعية الاتفاقات الموقعة وغير ذلك من المرجعيات التي سمعنا بها.

هكذا تبخرت الآمال التي راودت الجميع في وقت من الأوقات بقرب التوصل إلى التسوية والسلام المنشود وصار رجل الشارع الفلسطيني يعتقد أن الإسرائيليين يلعبون لعبتهم المفضلة لاستغلال الوقت في نهب المزيد من الأراضي ومن الحقوق على نحو مخيب لآمال الفلسطينيين بل مهين لعقولهم و ساخر من ذكائهم ومستمر في التعامل معهم بأسلوب التنكيل و المعايرة بالضعف والتفاخر بالقوة. وبينما بشرت السلطة الفلسطينية بالسلام وعصره الزاهي ومضت قدما في تطبيع العلاقات، واصل الإسرائيليون تعاملهم اليومي مع الفلسطينيين عن طريق المستوطنين الأصوليين الإرهابيين المتطرفين بمعنى الكلمة ؛ أو بالأساليب الاحتلالية التي كانت متبعة قبل وجود السلطة الوطنية، يستوي في ذلك زمن الليكود وزمن العمل.

كان ذلك يعني بالنسبة للفلسطينيين نخرا مزدوجا في عقيدتهم الوطنية، إذ انهم عاشوا حياتهم من قبل وهم يرون الإسرائيلي عدوا مغتصبا لا مجال لمقابلته إلا على أرض المعركة. ثم قبلوه على أساس التعايش والاقتسام

وشراكة السلام متنازلين بذلك عن مبدأ استرداد الحق بكامله، وإذا بهم يفاجأون بأن شريك السلام هذا الذي طالما تظاهر بأن أقصى أمانيه هي الجلوس على مائدة المفاوضات والتفاهم بالحسنى إنما يضمر في الحقيقة تكريس الاحتلال وما هو أسوأ من الاحتلال تحت ستار مفاوضات السلام وهو يعد استدراج الفلسطينيين إلى المفاوضات خطوة للتطبيع مع البلاد العربية و غزو الأسواق في الخليج و غيره. وليس للفلسطينيين حيال هذه المفاجآت إلا أن يذهبوا للراعي الأمريكي الذي يسجل شكاواهم ويشير عليهم أن يعودوا إلى طاولة المفاوضات مرة ثانية وثالثة ورابعة ومائة وألفا. وهكذا.. يفقد الفلسطينيون مزيدا من الأرض ويجري تجريدهم في الوقت نفسه من حرية المبادرة والفعل، إلى درجة أن بعض المسؤولين الإسرائيليين باتوا يطالبون بعدم الاحتجاج بالكلام على هذا اللف والدوران والمراوغة المستمرة منذ مؤتمر مدريد حتى اليوم، وباتوا يعدون أي استنكار لفظي لسياساتهم بمثابة اعتراض على نص مقدس ومعاداة للسامية وإنكار للهولوكوست.. إلى آخر المعزوفة..

كان الجمهور الفلسطيني يحتاج أمام هذا الانقلاب العقائدي النفسي المصحوب بالإحباط و اللاجدوى إلى تعويض أيدولوجي أو على الأقل هدف عملي يستنفذ طاقة السخط و خيبة الأمل. وكان المنطق العملي يفترض أن بناء مؤسسات الوطن على أسس متينة من الكفاءة النموذجية و الطهارة المسلكية و الإبداع الإعماري هو ذلك الهدف العملي المصحوب بتعبئة معنوية تعويضية،إلا أن تركيبة السلطة الوطنية و ظروف تأسيسها حالت دون هذا الطموح المتواضع.

لقد كان الأداء الفلسطيني في الإدارة بالغ السوء والترهل والفساد. وأصاب المواطن الفلسطيني بإحباط شديد. ومن عوامل التعقيد في هذا الموقف أن المواطن الذي هو صاحب المصلحة في وجود السلطة الوطنية وجد الطريق إلى إصلاح أدائها مغلقا، فلا القطط السمان مكتفية عند حد، ولا دائرتها تتوقف عن الاتساع، ولا المجلس التشريعي قادر على المحاسبة أو وقف التدهور، ولا الاحزاب والجبهات والمنظمات والفصائل بادرت الى ابتكار برامج وشعارات تناسب الوضع القائم، بل كررت تقريبا أطروحاتها السابقة أيام بيروت وأيام المجالس الوطنية في المنفى،وراح الجميع يسعى الى موقع قبل فوات الموسم، ووصل من وصل ووقع الظلم على من لا ظهير له. وفي هذا نخر آخر في الوجدان الوطني و الحس الخلقي للناس، وفيه انتصار للتشكيك الذي دأب الإسرائيليون على إشاعته في ما بين الفلسطينيين بعضهم و بعض. و بدا للإسرائيليين أنها فرصة ذهبية لتعميق الفجوة بين القيادة و القاعدة، ولاختراق الصفوف وتجنيد مزيد من العملاء.

وثمة محنة أخرى في تجربة الحكم الفلسطيني الراهنة، وهي المحنة المتمثلة بمعاملة بعض الأحزاب الإسلامية. فالاعتقالات التي جرت منذ عام ١٩٩٦حتى اليوم، لم تتوقف عند حد ملاحقة أولئك الذين خرجوا على التزامات السلطة القاضية بالامتناع عن الكفاح المسلح فقاموا بالتحضير لعمليات عسكرية أو شرعوا بالتحرك اليها، وهو الخروج الذي أطلق عليه الناطقون باسم السلطة (ازدواجية السلطة)، ولكنها قامت باعتقالات كيفية بناء على تقارير مخبرين وليس على ملفات قانونيين. واحتجزت الكثيرين دون أوامر توقيف شرعية ودون تقديم للمحاكمة ودون أن يكون لفترة التوقيف نهاية معلومة أو متوقعة. وكان ذلك ضربة مؤثرة للغاية للشعور بالوحدة الوطنية التي هي نقطة القوة رقم (١) في كفة الميزان الفلسطينية. كما كان لذلك أثر بالغ في تسميم العلاقات وانطواء النفوس على الثارات، دون إن تكون له ضرورة، ودون ان يراعى فيه ترك الفرصة مفتوحة للصلح واعادة اللحمة بين الناس. لقد حدث النزيف الداخلي وسط تهليل الخصوم الذين قامت استراتيجية بقائهم أصلا

على قسمة كل عدد صحيح في بلادنا وفي منطقتنا العربية وعمقنا الإسلامي.

أما على صعيد الروابط العربية التي تمثل كما قلنا مصدراً من مصادر القوة الفلسطينية، فإن العلاقات بين الرسميين تكاد تكون الشكل الأوحد الجاري مع بعض البلدان العربية، في حين يسود الفتور . وأحيانا العداء المصحوب بحملات إعلامية . آفاق العلاقات مع أنظمة أخرى. وليست هناك في المقابل علاقات بين مؤسسات شعبية أو جماهيرية أو ثقافية عربية وفلسطينية، بينما تجري عجلة التطبيع مع الإسرائيليين في إطار برامج منتظمة مثل برنامج " شعب لشعب " وعشرات البرامج التي تتبناها منظمات أجنبية تهتم بشكل خاص بالشباب والأطفال والمرأة. وفي حين يغض بعض أصحاب القرار نظرهم عما يجري في إطار هذه البرامج، فان حناجرهم العريضة ما تكاد تنفتح في مناسبة سانحة ضد هذا البلد أو ذاك النظام العربي حتى يصعب إغلاقها، كأنما بينهم وبين العرب والعروبة ثأرا لا ينقضي. وكأنهم يتوسلون عن طريق الطعن ببني جلدتهم إلى كسب الحظوة في عيون الأجنبي. وكأن الحملات الإعلامية بين البلاد العربية لم تورث من الضغائن والأحقاد ما اكتوت بناره الشعوب وحدها.

ها نحن وها هم إخواننا العرب، شتم كل منا وكل منهم الآخرين بما لا مزيد عليه من الشتائم دون ان تنجح تلك الشتائم والحملات الكلامية في إنزال حاكم عن كرسيه أو إصلاح حال معوج هنا أو هناك. وها نحن نهرع إذا ضاقت بنا الأمور إلى المطالبة بالقمة العربية أو القمة الرباعية أو مجلس الجامعة

العربية.فلماذا نثابر على الاتجار بالفرقة والخصومة ونحن أحوج إلى إخواننا في طريق الصراع الطويل مع الخصم الطامع في الجميع؟ لقد كان الأجدر بنا أن نصر على البحث عما يجمع لا ما يفرق، ونلتمس التقارب والتزاور لا التباعد والقطيعة. ونحن باختصار محتاجون إلى سياسة عربية تضيف قوة إلى كفة الميزان الخاصة بنا، ولا تسلم بأن العرب أصفار، ولا تتوقف عن نسج العلاقات بين الشعوب وبين الأنظمة المتعارضة على حد سواء وكما شهدت هذه الفترة ضعف الروابط العربية، فمن نافلة القول أن الروابط الإسلامية صارت أبعد عن الاهتمام على الصعيدين الرسمي والشعبي. مع العلم أن ما يدور في العالم الإسلامي كله يتطلب الرأي والمشورة وأن العمق الإسلامي للقضية الفلسطينية كان دائما عاملا لا غنى عنه في إكسابها الوزن والقوة.

خلاصة القول أن الأمر يحتاج إلى وقفة ومواجهة للذات بعد هذا الشوط الذي قطعناه والحال الذي وصلنا إليه.

إن هناك تراجعا وتآكلا في الموقف الفلسطيني من جميع نواحيه وان جزءا من هذا التراجع والتآكل يعود إلى إساءة التصرف وإساءة الائتمان من جانب بعض الذين لم يقدروا معنى المسؤولية التي تسلموها ولم يقدروا شعبهم حق قدره. وهناك من ناحية أخرى جهد مبرمج دؤوب يقوم به الخصوم الأجانب لنخر عناصر القوة والانتماء الفلسطيني تمهيدا لحذف الرقم الوطني من معادلة السياسة في الشرق الأوسط .

لقد ظن بعض البسطاء أن التعهدات الأمريكية بالتوصل إلى تسوية مرضية لجميع الأطراف، سوف توفر على الفلسطينيين مشقة الحفر في الصخر، وسوف تأتي بالدولة الفلسطينية التي جعلوا الوصول إليها بديلا عن التحرير. ونسوا ان الواقع الراهن يكبل الفلسطينيين بقيود استعمار متعدد الصفات والأشكال. فالاحتلال العسكري شكل منه، والاحتلال الاستيطاني شكل آخر، والسيطرة الاحتكارية الاقتصادية شكل ثالث. ولا بد من صمود صلب في مواجهة هذا كله. ولن يستطيع الفلسطينيون أن يتجاوزوه إلا بمدد من الله ومن اخوتهم المعنيين بفلسطين والعدالة وحقوق الناس في أوطانها. ويبدأ هذا بإصلاح حال الذات و تطهير الساحة الوطنية من

الآفات.نص مقدس ومعاداة للسامية وإنكار للهولوكوست.. إلى آخر المعزوفة..

كان الجمهور الفلسطيني يحتاج أمام هذا الانقلاب العقائدي النفسي المصحوب بالإحباط و اللاجدوى إلى تعويض أيدولوجي أو على الأقل هدف عملي يستنفذ طاقة السخط و خيبة الأمل. وكان المنطق العملي يفترض أن بناء مؤسسات الوطن على أسس متينة من الكفاءة النموذجية و الطهارة المسلكية و الإبداع الإعماري هو ذلك الهدف العملي المصحوب بتعبئة معنوية تعويضية،إلا أن تركيبة السلطة الوطنية و ظروف تأسيسها حالت دون هذا الطموح المتواضع.

لقد كان الأداء الفلسطيني في الإدارة بالغ السوء والترهل والفساد. وأصاب المواطن الفلسطيني بإحباط شديد. ومن عوامل التعقيد في هذا الموقف أن المواطن الذي هو صاحب المصلحة في وجود السلطة الوطنية وجد الطريق إلى إصلاح أدائها مغلقا، فلا القطط السمان مكتفية عند حد، ولا دائرتها تتوقف عن الاتساع، ولا المجلس التشريعي قادر على المحاسبة أو وقف التدهور، ولا الأحزاب والجبهات والمنظمات والفصائل بادرت إلى ابتكار برامج وشعارات تناسب الوضع القائم، بل كررت تقريبا أطروحاتها السابقة أيام بيروت وأيام المجالس الوطنية في المنفى،وراح الجميع يسعى الى موقع قبل فوات الموسم، ووصل من وصل ووقع الظلم على من لا ظهير له. وفي هذا نخر آخر في الوجدان الوطني و الحس الخلقي للناس، وفيه انتصار للتشكيك الذي دأب الإسرائيليون على إشاعته في ما بين الفلسطينيين بعضهم و بعض. و بدا للإسرائيليين أنها فرصة ذهبية لتعميق الفجوة بين القيادة و القاعدة، ولاختراق الصفوف وتجنيد مزيد من العملاء.

كان في الوسع التماس العذر في البداية للفوضى الإدارية و لسائر المظاهر السلبية التي حدثت في السنة الأولى أو الثانية من تأسيس السلطة على أساس أن الوضع الجديد قام دون سابقة و أن ضرورة استيعاب الكادر القادم من الخارج أملت توظيف القادمين الذين تعلقت حياتهم بمنظمة التحرير سابقاً.لكن الأعوام اللاحقة شهدت نشوء حالة أسوأ برزت فيها مراكز قوى لا تتورع عن المتاجرة بأي شيء و استطاعت أن تشتري لنفسها الحماية من القادرين عليها. و من هنا أصبح الإصلاح الإداري يواجه عقبات كأداء بقدر المصالح الفاحشة التي استوطنت داخل الجهاز الإداري. و يقيناً إن دوام مثل هذا الوضع سيؤدي إلى تفاقم البؤس سنة بعد سنة حتى يكون الانفجار.

وثمة محنة أخرى في تجربة الحكم الفلسطيني الراهنة، وهي المحنة المتمثلة بمعاملة بعض الأحزاب الإسلامية . فالاعتقالات التي جرت منذ عام ١٩٩٦حتى اليوم، لم تتوقف عند حد ملاحقة أولئك الذين خرجوا على التزامات

السلطة القاضية بالامتناع عن الكفاح المسلح فقاموا بالتحضير لعمليات عسكرية أو شرعوا بالتحرك إليها، وهو الخروج الذي أطلق عليه الناطقون باسم السلطة (ازدواجية السلطة)، ولكنها قامت باعتقالات كيفية بناء على تقارير مخبرين وليس على ملفات قانونيين. واحتجزت الكثيرين دون أوامر توقيف شرعية

ودون تقديم للمحاكمة ودون أن يكون لفترة التوقيف نهاية معلومة أو متوقعة. وكان ذلك ضربة مؤثرة للغاية للشعور بالوحدة الوطنية التي هي نقطة القوة رقم (١) في كفة الميزان الفلسطينية. كما كان لذلك أثر بالغ في تسميم العلاقات وانطواء النفوس على الثارات، دون إن تكون له ضرورة، ودون ان يراعى فيه ترك خط الرجعة مفتوحاً وإعادة اللحمة بين الناس. لقد حدث النزيف الداخلي وسط تهليل الخصوم الذين قامت استراتيجية

بقائهم أصلا على قسمة كل عدد صحيح في بلادنا وفي منطقتنا العربية وعمقنا الإسلامي. لقد كان للسلطة الوطنية مندوحة عن ذلك باللجوء إلى القانون الذي يطال من تقع عليه مسؤولية جزائية مشترعة. أما الاعتقال السياسي فهو مسلك ذميم تكرهه شعوب المنطقة وهو حرام بصورة خاصة على الشعب العربي الفلسطيني الخارج لتوه من احتلال طويل مارس أساليب الاعتقال و القمع دون هوادة

أما على صعيد الروابط العربية التي تمثل كما قلنا مصدراً من مصادر القوة الفلسطينية، فإن العلاقات بين الرسميين تكاد تكون الشكل الأوحد الجاري مع بعض البلدان العربية، في حين يسود الفتور . وأحيانا العداء المصحوب بحملات إعلامية . آفاق العلاقات مع أنظمة أخرى. وليست هناك في المقابل علاقات بين مؤسسات شعبية أو جماهيرية أو ثقافية عربية وفلسطينية، بينما تجري عجلة التطبيع مع الإسرائيليين في إطار برامج منتظمة مثل برنامج " شعب لشعب " وعشرات البرامج التي تتبناها منظمات أجنبية تهتم بشكل خاص بالشباب والأطفال والمرأة. وفي حين يغض بعض أصحاب القرار نظرهم عما يجري في إطار هذه البرامج، فان حناجرهم العريضة ما تكاد تنفتح في مناسبة سانحة ضد هذا البلد أو ذاك النظام العربي حتى يصعب إغلاقها، كأنما بينهم وبين العرب والعروبة ثأرا لا ينقضي. وكأنهم يتوسلون عن طريق الطعن ببني جلدتهم إلى كسب الحظوة في عيون الأجنبي. وكأن الحملات الإعلامية بين البلاد العربية تجربة جديدة لم نجربها من قبل و لم نعرف أنها تورث من الضغائن والأحقاد ما تكتوي بناره الشعوب وحدها.

ها نحن وها هم إخواننا العرب، شتم كل منا وكل منهم الآخرين بما لا مزيد عليه من الشتائم دون ان تنجح تلك الشتائم والحملات الكلامية في إنزال حاكم عن كرسيه أو إصلاح حال معوج هنا أو هناك. وها نحن نهرع إذا ضاقت بنا الأمور إلى المطالبة بالقمة العربية أو القمة الرباعية أو مجلس الجامعة

العربية.فلماذا نثابر على الاتجار بالفرقة والخصومة ونحن أحوج إلى إخواننا في طريق الصراع الطويل مع الخصم الطامع في الجميع؟ لقد كان الأجدر بنا أن نصر على البحث عما يجمع لا ما يفرق، ونلتمس التقارب والتزاور لا التباعد والقطيعة. ونحن باختصار محتاجون إلى سياسة عربية تضيف قوة إلى كفة الميزان الخاصة بنا، ولا تسلم بأن العرب أصفار، ولا تتوقف عن نسج العلاقات بين الشعوب وبين الأنظمة المتعارضة على حد سواء.

وكما شهدت هذه الفترة ضعف الروابط العربية، فمن نافلة القول أن الروابط الإسلامية صارت أبعد عن الاهتمام على الصعيدين الرسمي والشعبي. مع العلم أن ما يدور في العالم الإسلامي كله يتطلب الرأي والمشورة وأن العمق الإسلامي للقضية الفلسطينية كان دائما عاملا لا غنى عنه في إكسابها الوزن والقوة.

خلاصة القول أن الأمر يحتاج إلى وقفة ومواجهة للذات بعد هذا الشوط الذي قطعناه والحال الذي وصلنا إليه.

إن هناك تراجعا وتآكلا في الموقف الفلسطيني من جميع نواحيه وان جزءا من هذا التراجع والتآكل يعود إلى إساءة التصرف وإساءة الائتمان من جانب بعض الذين لم يقدروا معنى المسؤولية التي تسلموها ولم يقدروا شعبهم حق قدره. ومن الغريب أن بعض هؤلاء يصرون على الظهور بمظهر الوطني الغيور ولا يعدمون المستفيدين الذين يسبحون بأفضالهم. وهناك من ناحية أخرى جهد مبرمج دؤوب يقوم به الخصوم الأجانب لنخر عناصر القوة والانتماء الفلسطيني تمهيدا لحذف الرقم الوطني من معادلة السياسة في الشرق الأوسط .

لقد ظن بعض البسطاء أن التعهدات الأمريكية بالتوصل إلى تسوية مرضية لجميع الأطراف، سوف توفر

على الفلسطينيين مشقة الحفر في الصخر، وسوف تأتي بالدولة الفلسطينية التي جعلوا الوصول إليها بديلا عن التحرير. ونسوا ان الواقع الراهن يكبل الفلسطينيين بقيود استعمار متعدد الصفات والأشكال. فالاحتلال العسكري شكل منه، والاحتلال الاستيطاني شكل آخر، والسيطرة الاحتكارية الاقتصادية شكل ثالث. ولا بد من صمود صلب في مواجهة هذا كله. ولن يستطيع الفلسطينيون أن يتجاوزوه إلا بمدد من الله ومن اخوتهم المعنيين بفلسطين والعدالة وحقوق الناس في أوطانها. ويبدأ هذا بإصلاح حال الذات و تطهير الساحة الوطنية من الآفات